[١]

غزوة القرون العَشرة

لقد احتل الغرب -الإغريقى/ الرومانى/ البيزنطى -الشرق، قبل ظهور الإسلام، عشرة قرون- من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد- وحتى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] - فى القرن السابع للميلاد..

وحتى بعد تحرير الفتوحات الإسلامية للشرق من هذا الاحتلال الغربى الذى دام عشرة قرون، ظلت القسطنطينية تجيّش الجيوش كل عام ضد الشرق الإسلامى، حتى فتحها محمد الفاتح [٨٣٣ - ٨٨٦ هـ ١٤٣٠ - ١٤٨١م] فى سنة ٨٥٧هـ سنة ١٤٥٣م.. ثم طارد العثمانيون جيوشها فى البلقان.. وإبان هذا الاحتلال الغربى للشرق، نهب الغرب الشرق اقتصاديا.. فكانت مصر -على سبيل المثال- «سلة الغذاء» لروما.. وكان المواطن المصرى يدفع للرومان -فى العام- أربع عشرة ضريبة.. وفى السياسة، قهر الرومان الشرق، فحرموا أهله من حكم بلادهم طوال هذه القرون..

وفى الفكر والثقافة، أحل الرومان ثقافتهم الهللينية وفلسفتهم اليونانية محل ثقافات الشرق وفلسفات أممه وشعوبه، حتى لقد كُتبت اللغة المصرية -القبطية- بحروف يونانية خلال ذلك التاريخ..

ولقد بلغ القهر الدينى الذروة عندما اضطهدت الوثنية الرومانية النصرانية الشرقية، ثم أفسدت هذه الوثنية الرومانية التوحيد النصرانى، عندما طوَّع «بولس» [٦٧م] النصرانية لهذه الوثنية الرومانية، على النحو الذى لخصه الفيلسوف المسلم قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥هـ ١٠٢٤م] عندما قال: «**إن النصرانية عندما دخلت روما، لم تتنصَّر روما، ولكن النصرانية هى التى تَرَوَّمت**»!..

ولقد جعل الرومان- بعد أن تنصروا بنصرانية «بولس» الوثنية- لهم مذهبا- هو المذهب الملكانى- المغاير لمذاهب النصرانية الشرقية- ومارسوا به الاضطهاد للنصرانية الشرقية- وخاصة «الآريوسية»، التى ظلت متعلقة بحبال التوحيد-

فمارسوا ضدها الحظر والحرمان والاتهام بالهرطقة والمروق، ونهبوا وصادروا مالأهلها من كنائس وأديرة، وطاردوا بطاركتها وقساوستها.. بل وعذبوا أهلها بالإحراق والإغراق، وتقديم المؤمنين بها طعاما للأسود والوحوش.. حتى لقد قتل الإمبراطور الرومانى «جستنيان» [٤٨٣ - ٥٦٥م] من نصارى القبط - بالإسكندرية- فى يوم واحد أكثر من مائتى ألف.. ومن نجا من القتل فر إلى الصحارى والمغارات وشعاب الجبال..

ولقد كانت تلك واحدة من المذابح التى تكررت إبان ذلك التاريخ![1].. والتى استمرت -كجزء من القهر الدينى- أغلب القرون المسيحية التى سبقت ظهور الإسلام

وعندما ظهر الإسلام، وبدأت بواكير السياسة الخارجية لدولة النبوة سنة ٧هـ سنة ٦٢٨م عقب صلح الحديبية سنة ٦هـ ٦٢٧م وأرسل رسول الله ﷺ رسائله إلى قادة القوى العظمى القاهرة للشرق -الروم والفرس- كتب فى رسالته إلى هرقل [٦١٠ - ٦٤١م] قيصر الروم، ينذرة بضرورة تحرير النصارى من القهر والاضطهاد.. فجاء فى رسالته، التى حملها رسوله الصحابى دحية الكلبى [٤٥هـ ٦٦٥م] إلى قيصر الروم.. «**أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأَرِيسِيِّين**»..

وعندما جاء رسول رسول الإسلام حاطب بن أبى بلتعة [٣٥ق.هـ ٣٠هـ ٥٨٦- ٦٥٠م] برسالة الرسول ﷺ إلى «المقوقس» -عظيم القبط بمصر- أعلن له -باسم الإسلام- ولأول مرة فى التاريخ ميثاق الحرية الدينية.. فقال له -باسم الإسلام-: «**ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به**»![2]

●●●

(١) توماس آرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٢٣ ترجمة: دكتور حسن إبراهيم حسن، دكتور عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى - طبعة القاهرة: سنة ١٩٧٠م.

(٢) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص٤٦ طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

ولقد خرجت جيوش الفتوحات الإسلامية لتحرر -فى ثمانين عاما- الأوطان التى قهرها الرومان والفرس لعشرة قرون.. فحررت الأوطان.. والضمائر.. والعقائد.. وتركت الناس وما يدينون.. حتى أن نسبة المسلمين فى رعية الدولة الإسلامية لم تتعد ٢٠٪ بعد مائة عام من هذه الفتوحات![١]..

وحتى لقد شهد رجال الدين النصارى- الذين عاينوا وقائع هذا التحرير الإسلامى للنصرانية الشرقية ولأهلها ولكنائسها وأديرتها- بأن هذا الفتح الإسلامى قد مثل «**الإنقاذ**» لهذه النصرانية الشرقية من الفناء.. ومثّل -أيضا- العقاب الإلهى للرومان على القهر الذى مارسوه للنصرانية الشرقية وأهلها.. وأنه قد حقق للنصارى الشرقيين «الخلاص» و«الحرية» و«الطمأنينة» و«الأمان» و«النجاة» و«السلام»..

وكنموذج لهذه الشهادات ما كتبه الأسقف الأرثوذكسى القبطى «يوحنا النقيوسى» - ثالث رجالات الكنيسة المصرية فى ذلك التاريخ.. وشاهد العيان على الفتح الإسلامى لمصر - والذى قال:

«إن الله الذى يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرؤهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين -[العرب المسلمين]- ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر..

وكان هرقل حزينا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم.. مرض هرقل ومات.. وكان عمرو -[بن العاص]- يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ عليها -[الكنائس]- طوال الأيام..»[٢]

هكذا تحدث شاهد العيان على الفتح الإسلامى لمصر - وهو ثالث أسقف فى الكنيسة المصرية الأرثوذكسية، فأعلن أن هذا الفتح هو الذى أنقذ مصر

---

(١) فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص٢٥ ترجمة: بشير السباعى - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

(٢) يوحنا النقيوسى [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: رؤية قبطية للفتح الإسلامى] ص٦٢ ترجمة ودراسة: دكتور عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

ونصـرانيتـها . . وأن المسلـمين قـد أقامـوا العدل بـين أهل مصـر -بدلا من ظلم الرومان- وحرروا عقـائد المصريين، وحققوا الأمان لدور العـبادة النصرانية «طوال الأيام» . . ولم «يرتكبوا سلبا ولا نهبا» . .

أى أن مـصر ونصـرانيتـهـا إنما كانت «هبـة الإسـلام» الذى أنقذها من دمـار الرومان! . .

● ولقد جـدد هذه الشهـادة علم آخر من أعـلام النصرانيـة الشرقيـة، هو البطرك السريانى مـيخائيل الأكـبر [١١٢٦-١١٩٩م] - بعد خمـسة قرون من التـحرير الإسلامى . . فقال: «**لم يسمح الامبـراطور الرومانى لكنيستنا المونوفيـزتية -[القائلة بالطبيـعة الواحدة للمسـيح] - بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقـفة فيمـا يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه..**

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغـة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنـوب أبناء إسماعـيل لينقذونا من أيدى الرومـان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»[1] . .

هكذا شهد بطريرك السريان -صـاحب [كتاب الحوليات] فى تاريخ الكنيسة فى الشرق- بأن الرومان «الأشرار» قد اتهموا النصرانية الشرقية بالهرطقة، وحظروها، ونهبوا كنائسها وأديرتها . . وأن الفتح الإسلامى هو الذى أنقذ هذه المسيحية وأهلها من الإبادة . .

ولقد جـاءت هذه الشهـادة بعد خـمسة قـرون من الفتح الإسـلامى، لتشـهد على أن العدل الإسلامى لم يكن وقـفا على عصر الصحابة، وإنما كان نـهجا إسلاميا استـمر عبر التاريخ..

● وشهـد بذلك التحـرير الإسلامى علماء غـربيون كثـيرون . . منهم العـلامة الإنجليزى «سير توماس آرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] الذى قال:

«**إنه من الحق أن نقـول: إن غير المـسلمين قـد نعموا، بـوجه الإجمـال فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجـة من التسـامح لا نجد لهـا معـادلا فى أوربا قبل الأزمنة الحـديثة.. وإن**

(١) دكتور صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص٦٢ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين، كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح»[1]..

فالتسامح الذى حققته الفتوحات الإسلامية - فى القرن السابع الميلادى- لم تعرفه أوربا -كما يقول آرنولد- إلا فى القرن العشرين!!..

والرهبان، الذين هربوا من اضطهاد الرومان إلى أديرة الصحراء «**خرج منهم سبعون ألفا- من أديرة وادى النطرون- بيد كل واحد عكاز.. فسلموا على عمرو ابن العاص، وكتب لهم كتابا بالأمان «احتفظوا به فى أديرتهم»**[2]..

والأنبا «بنيامين» [٣٩هـ ٦٥٩م] - البطرك الوطنى للأقباط- الذى طارده الرومان، فهرب من ظلمهم ثلاثة عشر عاما - والذى أحرقوا أخاه ورموه فى البحر انتقاما منه- كتب له عمرو بن العاص كتاب أمان ووزعه على الأقاليم.. فظهر، واستقبله عمرو بن العاص، وأكرمه، وأمّنه على نفسه وعلى كنائسه وأديرته - التى حررها الفتح الإسلامى من الاغتصاب الرومانى، وردها إلى أهلها - وأعاده إلى كرسى كنيسته الأرثوذكسية - بعد أن عزل البطرك الرومانى الذى اغتصب هذا الكرسى-..

وكما يقول الأسقف «يوحنا النقيوسى»:

«.. ودخل الأنبا بنيامين -بطرك المصريين- مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم ثلاثة عشر عاما.. وسار إلى كنائسه، وزارها كلها.. وكان كل الناس يقولون: هذا النفى، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا «كيرس» [البطرك المعين من قبل الرومان]..

وخطب «بنيامين» فى «ديرمقاريوس» فقال:

«لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون»[3]..

---

(١) توماس آرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٤٦١، ٤٦٢.

(٢) [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص١٩٤.

(٣) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص٢٠١، ٢٢٠.

● وشهد المؤرخ القبطى «يعقوب نخلة روفيلة» [١٨٤٧ - ١٩٠٥م] - صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية]- الذى أعيد طبعه سنة ٢٠٠٠م من قبل مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ -بمقدمة للدكتور جودت جبرة- شهد هذا المؤرخ على التحرير الإسلامى لمصر ونصرانيتها وكنائسها وبطركها الوطنى.. وعلى عدل المسلمين الفاتحين المحررين.. وعلى إشراك أهل مصر فى حكم بلادهم وإقامة قضاء وطنى منهم ولهم، وتحقيق «الحرية والاستقلال المدنى» لمصر وأهلها، لأول مرة منذ الاحتلال الإغريقى الرومانى البيزنطى الذى دام عشرة قرون.. شهد يعقوب نخلة روفيلة على ذلك فقال:

«ولما ثبت قدم العرب فى مصر، شرع عمرو بن العاص فى تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم..

وأول شىء فعله من هذا القبيل: استدعاء «بنيامين» البطرك، الذى اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أمانا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب.. ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته.. وعزل البطريرك الذى كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلى معززا مكرما..

وكان «بنيامين» موصوفا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم «بالحكيم».. وقيل إن عمرو لما تحقق ذلك منه، قربه إليه وصار يدعوه فى بعض الأوقات ويستشيره فى الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها.. وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلا جزيلا لعمرو..

واستعان عمرو فى تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة، وعين نوابا من القبط، ومنحهم حق التداخل فى القضايا المختصة بالأقباط، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية..

وضرب [عمرو بن العاص] الخراج على البلاد بطريقة عادلة.. وجعله على أقساط، فى آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد..

وبالجملة، فإن القبط نالوا فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان»[1]

هكذا شهد هذا المؤرخ القبطى على أن الفتح الإسلامى:

- حرر الأرض والوطن..
- وحرر الضمائر والعقائد..
- وحرر دور العبادة -الكنائس والأديرة- وردها إلى أصحابها..
- وأقام العدل القضائى.. والاجتماعى.. والاقتصادى..
- وحرر الإنسان وأمّن الهاربين..
- وأشرك أهل مصر فى حكم بلادهم لأول مرة منذ عشرة قرون!

لقد كان العرب الفاتحون جيشا مقاتلا، خاض جميع معاركه ضد الجيوش الرومانية الاستعمارية.. ولم يخض معركة واحدة ضد أهل البلاد المفتوحة.. بل لقد ساعد أهل هذه البلاد جيوش الفتح الإسلامى ضد الرومان المستعمرين..

ولأن هذا الجيش الإسلامى كان جيشا مقاتلا، يسعى لاستكمال الفتوحات التى تحرر بلاد الشمال الإفريقى من الاستعمار الرومانى.. فلقد أوكل حكم البلاد المفتوحة إلى أهلها - من أسلم منهم ومن بقى على نصرانيته -.. وكانت عودة الحكم الوطنى لهذه البلاد تحولا تاريخيا لم يعرفه أهلها منذ عشرة قرون..

ولقد استمرت إدارة البلاد بيد أهلها - عبر التاريخ الإسلامى- حتى قال المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز» [١٨٦٩ - ١٩١٧م]:

«لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[2]..

●●●

(١) يعقوب نخلة روفيلة [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٤ - ٥٧ - طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] حـ١ ص١٠٥ ترجمة: دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

هكذا طوت الفتوحات الإسلامية الصفحة السوداء للموجة الأولى من الاستعمار الغربى- الإغريقى/ الرومانى/ البيزنطى للشرق.. وأزالت كابوس القهر الحضارى- الفكرى.. والثقافى.. والسياسى.. والدينى.. والاقتصادى - الذى خيم على الشرق قبل ظهور الإسلام.. حتى لقد قال أحد المؤرخين الغربيين:

«لقد كان محمد الإجابة الشرقية على الإسكندر الأكبر»!

●●●